بسم الله الرحمن الرحيم

خالد الحاج علي نور الدين

استخدام الكلمات الأجنبية في اللغة العربية ومـوقف المجامع اللغوية من ذلك

انتشرت وبصورة كبيرة جداً في مجتمعاتنا العربية ظاهرة استخدام كلمات أجنبية في حديث الناس اليومي، في المنازل والشوارع وأماكن العمل بل حتى داخل مؤسساتنا التعليمية مدارس كانت أم جامعات، وصارت بعض هذه الكلمات الأجنبية من شاكلة "سوري" Sorry و "قود" Good وغيرها جزءاً أصيلاً في كلامنا ولغتنا، حتى صار هذا الأمر لا يثير حفيظة أو يجد استهجاناً من الناس ولم يقف الأمر عند استخدام الكلمات فقط، بل تعداها إلى استخدام بعض العبارات مثل "هاو أر يو" How are you و "أي دونت نو" I don't know وغيرها، وهذا تدرج منطقي ومتوقع فمن الكلمة إلى العبارة إلى التراكيب وبالطبع إلى اللغة.

فما هي أسباب انتشار هذه الظاهرة؟ وما هي آثارها على اللغة العربية والأمة العربية سلباً وإيجاباً؟ وما هو دور المجامع اللغوية المنتشرة في معظم بلداننا العربية في الحد من تنامي وتزايد هذه الكلمات والعبارات؟ هذه الأسئلة نود الإجابة عنها من خلال هذه الدراسة.

اللغة وسيلة تواصل بين الناس، وهذه وظيفتها الأساسية والأولى فهي "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[1]، وحتى يتحقق لها ذلك لا بد من انتقال البيانات والمعلومات من الطرف الأول "المرسل" إلى الطرف الثاني "المستقبل" عبر الوسيلة المشتركة "اللغة" ، والمرسل يهدف إلى إيصال رسالته كاملة للمستقبل حتى تكتمل عملية التواصل، وعليه فهو يختار أسلم طريق لإيصال معلوماته، فإن لجأ إلى استخدام كلمات لا تنتمي إلى لغة التواصل المشتركة بينه وبين محدثه فإن ذلك منطقياً يرجع إلى أسباب عديدة:

[1] - راجع ابن جني "الخصائص"دار الكتب المصرية ، القاهرة ص40.

أولها: كون هذه الكلمات المستخدمة أكثر استعمالاً وانتشاراً في اللغة المشتركة.
ثانيها: كون هذه الكلمات لا يوجد لها مقابل في اللغة المشتركة يدل عليها تمام الدلالة، أو ليس لها مقابل في الأساس.

فعدم وجود مقابل للكلمات الأجنبية المستخدمة في اللغة العربية، أو عدم دلالته على المعنى المراد بصورة دقيقة وواضحة يدفع المتحدث إلى استخدام الكلمة الأجنبية لأنه يريد إيصال رسالته للمستمع، وبالطبع هناك الكثير من الكلمات الأجنبية التي تحتم ظروف الحياة ومواكبة العصر استخدامها ولا يوجد مقابل لها في اللغة العربية، بعضها نظرت إليه المجامع اللغوية وأقرت استعماله بل أقحمته في القاموس العربي مثل كلمات "تلفزيون" و "راديو" "وسيجار"[1] وغيرها، وأصبحت هذه الكلمات تعامل معاملة نظيراتها في اللغة العربية ، وهو اجتهاد للمجامع فمحاولة إيجاد مقابل لهذه الكلمات مثل "مرئي" ومذياع" و"لفافة" لا تجدي ولا تفيد لأن الكلمات الأجنبية انتشرت وفرضها مستخدم اللغة العربية فرضاً على المجامع اللغوية، وأصبح من غير المجدي محاولة حمل مستخدم اللغة على استخدام كلمات أخرى للدلالة عليهما، ولكن هذا الاجتهاد يظل ناقصاً لأنه لم يُتبع بتنظيم لحركة دخول مثل تلك الكلمات في اللغة العربية من حيث اخضاعها لقوانين وقواعد اللغة العربية نحواً وصرفاً وإملاءً، وتُرِك هذا الأمر على المستخدم الذي تصرف في مثل هذه الكلمات كما يحلو له فكتبها "تلفزيون" و "تلفاز" و "تيليفزيون " أو غيرها وجمعها على صيغة جمع المؤنث السالم لشموله واتساعه، واشتق منها أفعالاً "تلفز" للماضي و"يتلفز" للمضارع، واشتق منها مصدراً "تلفزة" واسم مفعول "متلفزة"، لن تستغرب إذا اشتق منها صيغة مبالغة أو اسم آلة في يوم من الأيام، وهذا الأمر جيد بالنسبة لمستخدم اللغة لأنه طوع الكلمة ووظفها للتعبير عن حاجياته، ولكن أين دور مجامع اللغة هنا؟ فهذه الاجتهادات تجعل من الصعب جداً إيجاد صيغة واحدة متعارف

[1] - راجع"المعجم الوسيط" ط.الثالثة ،مجمع اللغة العربية ، القاهرة ،الجزء الأول ، ص484.

ومتفق عليها في جميع الدول العربية حتى يتم استخدام مثل هذه الكلمات بصورة منظمة وسليمة، لأنها أصبحت كلمات عربية واحتواها قاموسنا العربي فمن الواجب تقنين استخدامها وعدم ترك هذا الأمر للمستخدم الذي يختلف من بلد لآخر، ومن شخص لآخر، أقول هذا لأن هذه الكلمات صارت جزءاً من لغتنا، أي أن استخدامها ليس قاصراً على فئات معينة أو بيئات بعينها، فإذا عمد كل منا إلى معالجة مثل هذه الكلمات وفقاً لبيئته ومجتمعه الخاص فإن ذلك حتماً سيؤدي إلى تشويه معالم لغتنا العربية اضطراباً وتداخلاً وربما تناقضاً.

هذا بالنسبة للكلمات التي نظرت فيها مجامعنا اللغوية وأفتت بشأنها، أما الكلمات التي لها مقابل مستخدم ومنتشر في اللغة العربية شاكلة "اوكي" و "سوري" وغيرها فهي في ظني الخطر المحدق الذي يهدد تماسك اللغة العربية، فتنامي مثل هذه الكلمات وازدياده يؤدي حتماً إلى خلق شكل جديد للغة ويلبسها ثوباً مرقعاً يخفي جمالها ورونقها، يظهرها في ثوب الوهن والضعف رغم عظمتها وريادتها، وما يثير حقاً هو أن الناس قد تعودوا على التحدث بهذه اللغة "الهجين" وأصبح من النادر بل من الغريب عند البعض أن تستمع لأحدهم يتحدث بلغة عربية تخلو من كلمة إنجليزية، تلك الندرة وهذا الاستغراب يشير إلى تعود الناس على هذا الأسلوب وإلفتهم له وسيتطور هذا الأسلوب ليصير سلوكاً ونمطاً يصبح من العسير جداً تغييره وتبديله، فلماذا ظهر هذا النمط في التحدث بين الناس، وما هي آثار ذلك على اللغة العربية، هذا ما سنحاول تناوله في السطور القادمات.

أسباب انتشار هذه الظاهرة:

1-ثورة التكنولوجيا والصناعات والاتصالات:

فعصرنا الحالي عصر تكنولوجيا وتطور صناعي مذهل قادته الدول الغربية الكبرى مما منح لغتها الذيوع والانتشار ومداومة الاستعمال، فجميع مخرجات هذه الثورة صارت من ضرورات الحياة ولا غنى للناس عنها، وبالتأكيد فإن التعامل مع مخرجات ثورة التكنولوجيا هذه يأتي متبوعاً باستخدام الأسماء التي أطلقها أصحابها عليها مما يحتم علينا – كمستهلك ومستفيد من هذه التكنولوجيا- استخدام كلمات أجنبية كثيرة تتمثل في تلك المسميات ومشتقاتها. وليست هذه المعضلة الأساسية فاستخدام أسماء منتجات صناعية أو وسائط تكنولوجية في مقاماتها لا يشكل هاجساً مزعجاً مقلقاً – في نظري- يؤدي إلى فقدان الإنتماء للغة العربية ، ولكن ما يثير القلق حقاً هو أن مداومة استعمال الكلمات الأجنبية وكثرة جريانها على ألسن الناس في غير مقاماتها- مع مرور الوقت- يُعوِّد الناس على نمط تواصلي معين يصير تدريجياً شكلاً معتاداً في التخاطب، يخرج عن إطار التكنولوجيا واستخداماتها ووسائلها ومخرجاتها إلى البيوت والمدارس والشوارع، فيصبح نمطاً سلوكياً يصعب السيطرة عليه – كما هو الواقع الآن- بعد أن يفرضه الناس في معاملاتهم ومخاطباتهم العامة، وهنا مكمن الخطورة وأس البلاء، والمهدد الأكبر للغة والثقافة والهوية العربية.

2-الصراع الثقافي والفكري:

المعروف أن الصراع والمنافسة بين المسلمين وغيرهم كان ولا زال وسيظل محتدماً رغماً عن ظهور مصطلحات على شاكلة "حوار الثقافات والحضارات" وغيرها، لان كل فريق يسعى لترسيخ ثقافته وأفكاره، وفي السنوات الأخيرة ابتعدنا – كعرب- عن سوح المنافسة الثقافية وأصبح الغرب حاملاً لواء الحضارة والثقافة وعمل على جرنا وراءه لأنهم ركزوا على الإنسان من داخله وعملوا على تذويب شخصية المسلم الثقافية والفكرية مستغلين انبهار الكثير من المسلمين

بحضارة الغرب، وشعور الكثير منهم بالنقص لكونهم ينتمون لمجتمع لا يواكب الحضارة ولذلك قاموا بتقليد الغرب تعويضاً لهذا النقص وتسرب هذا التقليد شيئاً فشيئاً حتى وصل إلى اللغة، فقد رسخ الكثير من العرب – سامحهم الله – لفكرة أن اللغة الإنجليزية هي لغة الحضارة والعلم ومن غيرها لا يستطيع الإنسان أن يواكب العالم المنطلق، وأصبحت معرفة اللغة الإنجليزية شرطاً في التوظيف دون اهتمام بمدى جودة العربية وسلامتها، مما دفع إلى الاهتمام بالإنجليزية على حساب العربية وأعطاها مساحات كبيرة ، حتى دخلت في لغتنا العربية في شكل كلمات، ثم تطورت إلى عبارات، ولا ندري إلى أين ستصل إذا جرى الأمر على هذه الوتيرة المتسارعة، ومما ساعد الغرب على الانتصار في هذا الجانب – حتى الآن على الأقل– وجود مشكلتي الجهل والفراغ التي يعاني منها الشباب الضائع، فإننا نجد أن لديهم استعداداً تاماً لتقليد الغرب في كل صغيرة وكبيرة ظناً منهم أنهم يواكبون الحضارة، وعلى هذا فهم لا يترددون مطلقاً في تلقي أي شيء من الغرب دون تفكير بمدى نفعه أو ضرره مما يؤدي إلى فقدان حس الانتماء، وضياع الهوية الثقافية لديهم، فالذي يفقد انتماءه لثقافته ولغته سينسلخ بكل سهولة عن هويته.

بعض الناس يدخل كلمات أجنبية في لغته العربية لاستعراض مدى ثقافته ومعرفته أمام الآخرين، فهو يراها مفخرة ويظن – وبعض الظن إثم– إن التحدث بهذه الكيفية يرفع من قدره ويمنحه التقدير والاحترام من الآخرين.

3–ضعف دور المجامع اللغوية وعدم مواكبتها:

فالمجامع اللغوية التي بدأ ظهورها في الدول العربية في الربع الأول من القرن التاسع عشر الميلادي ظلت تقوم بأدوار – في نظري– محددة لا تتعدى في الكثير من الدول العربية إقامة الندوات والمحاضرات والورش، ولا تكاد تجد لها دوراً في مراقبة اللغة المتداولة وسط المجتمعات المختلفة ولا الكلمات الغريبة التي يستخدمها الناس في تواصلهم اليومي، وهذا ما جعل المجمعيون لا يعملون

على وضع مفردات جديدة لمحاربة الألفاظ والمصطلحات الأجنبية إلا بعد أن يفرضها المستخدم وتصبح واقعاً لا بد من النظر فيه، وهنا تواجه المجامع صعوبات كبيرة جداً في فرض ونشر المقابل العربي للكلمة الاجنبية على المستخدم الذي تعود على استخدام الكلمة الأجنبية وأصبحت سهلة ومعروفة بالنسبة إليه، فليس من السهل بمكان استبدال هذه الكلمة عنده بمقابل عربي يحمل نفس الدلالة، ولو أن المجمع المعين كان مراقباً للغة المتداولة قبل انتشارها بين الناس بصورة واسعة وعمل على نشر مقابلها في وقت مبكر لحد من انتشار الكلمة الأجنبية ودون أن يدخل في مواجهة مع المستخدم. وبهذه الطريقة ما كانت ستدخل كلمة أجنبية وتذيع بين الناس دون علم المجمع وموافقته عليها وحينها يتمكن المجمع من تقنين دخول هذه الكلمة في اللغة العربية ، ويدرس مشاكلها الصرفية والنحوية وينظر في إخضاعها للقواعد العربية ، وبذلك يقيد المستخدم في التعامل مع هذه الكلمة حتى لا يضطر كلٌ حسب مزاجه وثقافته أن يتعامل مع الكلمة اشتقاقاً وجمعاً وإفراداً وتأنيثاً وتذكيراً.

وعلى المجامع اللغوية وقبل وضع كلمة مقابلة للكلمة الأجنبية أن تنظر جيداً إلى الكلمة المراد وضعها وتتأكد من تقبل المستخدم لها ، لأنها ستكون في منافسة مع الكلمة الأجنبية وستكون الكلمة العليا للمستخدم ، فلا يعقل أن يقرر مجمع لغوي استخدام كلمة "الشطيرة – الخبز المشقوق وبداخله الإدم" كمقابل للكلمة الأجنبية "ساندوتش"[1]، لأن كلمة "شطيرة" وحيدة لا تؤدي معنى "سندوتش"علاوة على صعوبة الكلمة وعدم مناسبتها للمسمى ، وهذا الأمر كان يجب أن يسترعي إنتباه المجمع اللغوي الذي استحدث مثل هذا المصطلح فالعقلية التواصلية في محيطنا المحلي في السودان عندما أرادت استخدام كلمة عربية تدل على الساندوتش أختارت كلمة "حشوة"وقد سارت هذه الكلمة بين الناس وما زالت مستخدمة في بعض المجتمعات ، فقد قبلها المستخدم لأنها

[1] -المعجم الوسيط ، ط.الثالثة، الجزء الأول ، ص502.

دقيقة الدلالة علاوة على بساطتها وسهولتها، وهذا ما لم يلاحظ إليه من وضع كلمة شطيرة .

وحتى لبا نظلم المجامع اللغوية فإننا نؤكد أنها لا تستطيع القيام بدورها كاملاً دون أن تكون لها أجسام أكبر حجماً مما هي عليه الآن –معظم المجامع يتراوح عدد أعضاءها بين 20–30 مجمعياً– وأن توضع لها ميزانيات تتناسب ودورها الكبير، فالمجامع اللغوية ميزانياتها ضعيفة للغاية ولا تمكنها من أداء دورها بالصورة المطلوبة وقد تعطلت الكثير من المشاريع التي كانت تنوي تلك المجامع إقامتها لضعف التمويل وعدم كفاية الميزانية[1]. وإذا توفر التمويل والكادر البشري المناسب يمكن أن تنشئ هذه المجامع في كل دولة عربية مراكز موزعة توزيعاً جغرافياً دقيقاً تمكنها من مراقبة الكلمات الدخيلة والجديدة والمصطلحات غير العربية بصورة يومية وجمع هذه الكلمات ودراستها مبكراً قبل انتشارها ،وحينها يمكن أن تجد هذه المجامع الطريقة المناسبة التي تنتهجها في مواجهة تلك الكلمات قبولاً وتقنيناً أو رفضاً ، ووضع مقابل في حال دعت الضرورة لذلك، وتحتاج المجامع إلى منحها فرصة في مراقبة اللغة الشائعة بين الناس بأن تكون لها كلمة قوية تستطيع عبرها ضبط حركة اللغة في وسط المجتمعات. فالفرنسيون مثلاً ممثلين في الجسم الموازي لمجامع اللغة عندنا أصدروا قراراً في وقت سابق منع بموجبه استخدام أسماء غير فرنسية في لافتات المحلات والمطاعم وجميع المرافق داخل دولة فرنسا، وفي بلادنا العربية نجد اللافتات حتى في بعض المرافق الحكومية تتداخل فيها الكلمات العربية بالأجنبية "القراند هولي دي" و "ريجنسي" و" سيتي بارك" وغيرها الكثير جداً من الأسماء التي صارت محفوظة للناس، دون أن يكون لهذه المجامع يد في هذا الأمر، وأعلم أن القوانين والنظم لم تترك لهذه المجامع سلطة على مثل هذا

[1] - راجع جريدة "الشرق الأوسط" العدد 1174 ، 19صفر1432هـ، الموافق 23يناير2011م ، حوار مع الدكتور محمد مكي الحسني، أمين مجمع اللغة العربية السوري .

الأمر ولكن من الأفيد أن تمنح ولو سلطة استشارية فإنها حتماً ستساعد في ضبط هذا الأمر والأمور المشابهة له.

آثار هذه الظاهرة:

1-تشويه اللغة العربية:

فهذه اللغة التي يتجاوز عمرها آلاف السنين حافظت خلالها على خصائصها الصوتية والدلالية وعلى بنيتها رغم التطور الذي لحق بها في فترات سابقة، أصبحت عرضة للتشويه من خلال توافد عدد كبير من الكلمات والعبارات الأجنبية عليها، وقد ذكرنا أن من أسباب ذلك التوافد الطفرة الصناعية والتكنولوجية التي يمر بها الغرب، والتفوق الذي أحدثه على العرب في هذا المجال، فاستمرار الكلمات الأجنبية على اللغة العربية لن يتوقف قريباً، ووفق هذه المعادلة وتبعاً لهذا النسق المتصاعد أحسب أن عدد الكلمات الأجنبية سيزداد بصورة مخيفة في اللغة العربية وأن تحقق هذا الأمر فهو التشويه الكامل للغة وفقدانها – بفعل الزمن– لكثير من خصائصها ورونقها، وليس ثمة تشويه أكبر من ذلك.

وأعلم أن هناك من يحتج على هذا الزعم، ذاهباً إلى أن دخول الكلمات الأجنبية وإن ازدادت وتيرته لا يمكن أن يؤثر على بنية وخصائص اللغة العربية لأنها لغة قديمة راسخة وأحسب أن هذا القول جانب الصواب، فاللغة سلوك إنساني يطبعها المستخدم بطابعه فإن ازداد استخدام الكلمات الأجنبية على ألسن المستخدمين لأصبحت بمرور الوقت جزءاً من اللغة نفسها على الأقل في نظر المستخدم وحينها ستظهر المشاكل المتعلقة بالنواحي الصرفية والنحوية لتلك الكلمات والتي ستُفرض فرضاً بواسطة المستخدم الذي سيتعامل مع تلك الكلمات وفق هواه ومعرفته.

وازدياد معدل هذه الكلمات سيوازيه ازدياداً في خرق القواعد النحوية والصرفية، وهذا تهديد مباشر لبنية اللغة ولخصائصها، فإذا افترضنا أن متحدث

اليوم – مثلاً– يستخدم كلمة أجنبية واحدة مقابل كل خمسة كلمات عربية، فمتحدث الغد وبعد الغد من الممكن أن تكون نسبة كلماته الأجنبية مقابل العربية في حديثه العام3–5 أو 4–5، بمعنى أن نصف كلامه أجنبي ونصفه عربي فهل من تشويه أكثر من ذلك؟

2–ضياع الهوية العربية والإسلامية:

إستمرار استخدام الكلمات والعبارات الأجنبية في اللغة العربية وبهذا النهج المتزايد سيؤدي بمرور الوقت إلى فقدان اللغة الأم وتحديداً عند الأطفال الذين سيستخدمون اللغة وفقاً لما ألفوه في بيئاتهم ومجتمعاتهم وتصبح عندهم سلوكاً من العسير جداً – إن لم يكن من المستحيل – تعديله أو تغييره، لأن الطفل يتشرب ما يجده في بيئته التي ينشأ فيها، واكتسابه لهذه اللغة المشوهة يخلق لديه نوعاً من التغريب فينشأ بلا انتماء للغته الأم، فإن ضياعها أو تشويهها يعني ضياع أو تشويه الثقافة كلها وبضياع الثقافة يفتقد الطفل هويته العربية والإسلامية وبالتالي تفتقد الأمة العربية هويتها العربية والإسلامية.

وانقطاع التواصل بينهم وبين التراث الفكري والثقافي والفني الموروث يعني خضوعهم للنتاج الفكري والثقافي والفني الغربي لأن الأمة العربية – في عصرنا هذا – تعيش على ماضيها وإرثها الحضاري والفكري القديم، وتتعشم في أن يكون هذا الموروث هو الزاد الحقيقي لشبابها حتى ينهضوا بها ويعيدوها سيرتها الأولى، ولكن انقطاع هؤلاء الشباب عن هذا الإرث يمهد لانسياقهم خلف الثقافات والأفكار الغربية ويهدم الأمل المرجو من هذه الفئة، وتعتبر اللغة هي أولى وسائل هذا الانقطاع عن الموروث الحضاري والثقافي، فمن ينشأ على لغة مشوهة لا يستطيع الإلمام بذلك الموروث الذي اعتمد لغة صحيحة فصيحة لا تشوبها شائبة، فضياع هذه اللغة وحلول لغة "هجين" محلها يؤدي إلى انقطاع الشباب عن الموروث الذي يؤدي بدوره إلى ضياع الهوية العربية والإسلامية.

لا أبني مقالي هذا على رفض التواصل والتداخل بين اللغات فلا يمكن أن نعيش في جزيرة معزولة عن العالم، ولكنني أبصِّر بخطورة التداخل دون بصيرة ودون رقابة، فلا غضاضة في وجود كلمات بعينها أجنبية في اللغة العربية، لأن اللغة الإنجليزية نفسها فيها كلمات عربية، ومعظم إن لم تكن أغلب اللغات اقترضت من اللغات الأخرى، ولكن تم هذا الأمر بصورة منظمة ودقيقة وعلمية، أما مكمن الخطر ففي استخدام كلمات أجنبية في اللغة العربية على الرغم من وجود مقابل لهذه الكلمات الأجنبية يؤدي المعنى بصورة دقيقة وبليغة، فهذا الاستخدام تم دون أي سبب أو مسوق ومبرر له، سوى أن المتحدث يريد أن يبرز مهاراته وثقافته ومعرفته الواسعة ، وهذا دليل انهزام داخلي ،أو أن هذا النوع من الناس يرى أن لغته أقل درجة من اللغة التي استعار منها ألفاظاً ليزين بها كلامه – حسب ظنه– وأنها لغة حضارة وعلم ومعرفة ولذلك فهو يشير باستخدامه لكلمات هذه اللغة إلى مدى علمه ومعرفته، وهذا النوع إن وجد شخصاً يجيد اللغة الأجنبية لما استخدم كلمة عربية واحدة في كلامه– وهذا في رأيي أفضل– ولو عاش في مجتمع كامل يجيد اللغة الأجنبية لما عاد للحديث باللغة العربية مطلقاً، وبمرور الوقت قد يصادف صعوبة بالغة في الحديث بالعربية مما يؤدي إلى إستحالة هضم واستيعاب الثقافة العربية وهذا مهدد كبير للهوية العربية.